الصين والمسألة الصينية

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

بينا كانت ابصار الدول شاخصة الى جنوبي افريقية والعالم كلهُ في انتظار ليرى كيف تنجلي هذه الحرب العوان القائمة على ساق منذ سنة بين امَّة عظيمة شديدة السطوة وشعبٍ صغير يؤثر الموت على فقد الحرية اذ برقت بوارق الثورة من اقاصي الشرق ودوى هزيم رعد الفتن وصعقت صواعق الهيجاء فكادت هذه الخطوب تُنسي تزاع الاسد البريطاني والثور الترنسفالي. وايمُ الله انَّ هذه الحرب الجديدة اذا ما دارت رحاها بين « المملكة السماويَّة » والدول الاوربيَّة سوف تترك النفوس عركًا وتُسيل الدماء سيولًا وتثقل وطأتها على بلاد واسعة وتنتشر ويلاتها بين أقوام لا يحصيهم العدّ. بل قل انَّ الحرب تقوم بين عالمين العالم القديم مع تمدُّنهِ العادي واستسلاكهِ بتقاليدهِ الجدّيَّة وعوائدهِ الجيليَّة والعالم الحديث مع وسائلهِ العديدة واختراعاتهِ الجديدة وتفاخرهِ بسموّ المدارك وثباتهِ في تنفيذ المآرب وطمعهِ في كسر شوكة معانديهِ الذين يتعرَّضون لهُ في سبيل رغائبهِ. والله اعلم بما سيكون من امر الغالب او المغلوب. وبينا نحن نتوقَّع بفروغ الصبر ما يضمرهُ لنا المستقبل طالبين من ربّ السلام ان ينجي عبادهُ من بلايا هذه الشرور العظام اردنا ان نوقف قرَّاءنا على شيء من أحوال الصين ليكونوا على بصيرة من امرها ويعرفوا كيف بلغت ما هي عليهِ اليوم من تفرُّق الكلمة وكثرة الشغب وماذا يُفهم « بالمسألة الصينيَّة » وهل للاجانب حقوق في تلك البلاد يمكنهم الدفاع عنها اذا ما انتهك الصينيُّون حرمتها مع لمحة من تاريخ النصرانيَّة في ممالك الصين

١ تعريف بلاد الصين

الصين او الچين اسم قديم مشتقّ من اسم احدى السلالات المالكة على الصين في القرن الخامس عشر قبل المسيح. فشاع اوَّلًا في بلاد الهند ثمَّ في سائر البلاد. اما

يضعون مثل صنع المناولة على سيل اللعب والتسلية فيحفرون اسماءهم على الطين فاذا يبس الطين يطبعون ما كتبوا فيهِ على الورق ويخرق النسيج وما شاكلها. وذلك كما لا يخفى دليل جديد واضح على انَّ الآراميين حتَّى الاولاد منهم مجبولون على حُبّ الكتابة وكل ما يؤول الى تخليد افكارهم واعمالهم

الصينيّون فانهم يدعون بلادهم غالبًا باسم « تشونغ كو » اي مملكة الوسط ايذانًا باعتقادهم انّ صورة العالم على شبه دائرة مسطّحة في وسطها الصين. وهو معتقد كثير من الاقدمين. وكان اليونان والرومان يعرفون الصين مع بعدها عن تخومهم ويدعون اهلها سيرًا (Seres). ومن اسمهم اشتقوا اسم الحرير فدعوهُ السيري (sericum)

وبلاد الصين من اوسع الممالك مساحة تبلغ سعتها تسعًا واحد عشر الفَ الف كيلومتر مربّع اعني انّها وحدها اكبر من اوربّة جمعاء بنحو مليون كيلومتر وهي تمتدّ بين ١٧° و ٥٥° من العرض الشمالي وبين ٦٧° و ١٤٣° من الطول الشرقي يحدُّها شرقًا وجنوبًا الاوقيانوس الكبير ببحاره المتفرّعة منهُ وهي بحر يابان والبحر الاصفر وبحر كورية وبحر الصين وتحدُّها شمالًا بلاد سيبيرية وغربًا تركستان وغربًا وجنوبًا هندستان والهند الصينيّة وكلُّ هذه الحدود مركّبة من بحار زاخرة واطواد شامخة اقامتها الطبيعة بنفسها كحواجز تفرز الصين عن غيرها من البلدان. ويسكن هذه الاقطار السحيقة ما يناهز ثلث سكّان العالم فانّ الاحصاءات المدقّقة التي بلغ اليها الجغرافيون تجعل عدد اهل الصين في الوقت الحاضر ٤٣٠,٠٠٠,٠٠٠ بل ازيد. وهو عدد يقرّرهُ المرسلون الذين بحثوا عن أحوال تلك البلاد وتبيّنوا امورهم بغاية ما امكنهم من التنقيب

هذا ولا بُدَّ هنا من تنبيه القرّاء على انّ المملكة الصينيّة اوسع حدودًا من نفس الصين فانّها تحتوي فضلًا عن الصين بلاد منشوريا وكورية والمغول والتركستان الصيني والتُّبت واليونان لانّ حكم ملوك الصين كان يمتدّ اليها حتى زماننا. على اننا نجتزئ في نبذتنا هذه بالكلام عن الصين وحدها دون هذه الملحقات التي كثيرًا ما يُطلق ايضًا عليها اسم الصين اتساعًا

فان قصرنا النظر على الصين بالخصر المذكور وجدنا انّ هذه الدولة تبارى اقدم الدول عهدًا واعظمها سؤددًا واجمعها لضروب المفاخر واصناف المكارم وهي اليوم كما كانت قبل ثلاثة آلاف سنة تحافظ على استقلالها وسنن اجدادها وسمة تخومها وامتداد سطوتها بما لا مزيد عليهِ من الحرص يشهد على ذلك بقايا سورها العظيم الذي اقامتهُ

---

(١) بل كان للصين سيطرة في القرون الخالية على بلاد عديدة كاليابان والتكين والانام وسيام وكانت هذه الاقطار تحيط بها احاطة الدارة بالهلال ولعلّها دعيت ايضًا لذلك « بمملكة الوسط » لتوسّطها بين هذه الممالك وسيادتها عليها

في وجه اعدائها على امتداد نحو ثلاثة آلاف كيلومتر بعلوّ يبلغ تسعة امتار لتردّ من يناويها خاويًا منكوصًا

والصين تُقسم في عهدنا الى ثماني عشرة ولاية ستّ منها بحريّة والباقي منها بعيد عن البحر. واكبر الولايات البحريّة ولاية التشيلي التي حاضرتها شو نتيان وهي عاصمة الصين تُعرف عند الاوربيين باسمها القديم پكين اي القصر الشمالي بقرب نهر پيهو متّصلة به بقناة واسعة وهي قسمان المدينة الداخلية من بناء التتار وفيها قصر الملك والمدينة الخارجية من بناء الصينيين يضمّهما سورٌ واحدٌ مداره ٢٧ كيلومترًا. امّا اهاليها فيبلغ اليوم عددهم نحو مليونين. وقدماء العرب عرفوا پيكين ووصفوها وهم يدعونها « خان بالق » او « خمبالو » وپكين مدينة اخرى تُعدّ كمدخل لها ومرسًى للسفن وهي مدينة تيان تسين من اكبر مُدن الصين التجاريّة يناهز سكّانها عدد المليون تبعد عن پكين نحو ١٠٠ كيلومتر

ومن الولايات البحريّة ولاية شانغ تُنغ عاصمتها تسينسان قو على النهر الاصفر وقد جاء ذكرها مرارًا في جغرافيّي العرب وهم يدعونها خُمدان وهي مشهورة بحريرها

ومنها ولاية كيان سو التي حاضرتها نان كين من اكبر مدن الصين كانت سابقًا تحت الملك ومركزها في سهل واسع الارجاء كثير الخصب والريع ويقربها يجري نهر كيانغ ومن آثارها القديمة بُرجها ذي العشر طبقات كلهُ من الخزف الصيني الثمين. وفي هذه الولاية نفسها مدينة سو تشيوفو عدد اهاليها كعدد اهل پكين وهي تدعى جنّة الصين لحسن تربتها وجودة هوائها. وفيها ايضًا مدينة اخرى معتبرة عند مصبّ النهر المذكور وهي شنغاي ذات التجارة الوافرة التي ترتبط عندها السفن الاوربيّة والاميركية يبلغ مجمل كمية معاملاتها السنويّة مليارًا من الفرنكات. ولشنغاي ارباض حلّ فيها الاوربيون وبنوا الابنية الفخيمة وهي اشبه بمدينة حديثة معلّقة بها

وفي هذه الولايات البحريّة ايضًا ولاية فوكيان وهي كثيرة الخيرات فيها الامصار المعمّرة والراسي المعتبرة وامّهات المدن مثل فوتشيوفو وتشان تشيوفو اي المدينة السعيدة (اهلها الف الف) وهيامن المدعوّة ايضًا أموي. وقد ذكر العرب القدماء من هذه الولاية مدينة زيتون كانوا يتاجرون فيها والصينيون يدعونها تسوتُنغ. وجزيرة فرموزة الشهيرة تلحق بولاية فوكيان

وفيها ايضاً ولاية تشي كيانغ التي ورد اسم عاصمتها هانغ تشيوفو (فيها مليون من النفوس) في اسفار العرب وقد دعوها في رحلاتهم خنساء قال ابن بطوطة في رحلته (٤ : ٢٨٤) : « واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة . . . وهذه المدينة اكبر مدينة رأيتها على وجه الارض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل . . كل احد لهُ بستانهُ ودارهُ وهي منقسمة الى ست مدن »

وفيها اخيراً في جنوبي الصين ولاية كوان تنغ قد اشتهرت من مدنها مدينة كانتون المدعوَّة ايضاً بلسانهم كوان تشيوفو وكان الاوربيون مدَّة اجيال عديدة لا يدخلون مدينة غيرها من الصين موقعها قرب مصبّ نهر تشيو كيانغ واهلها يربون على الف الف وفي جنوبها جزيرة ماكاو التي بنى فيها البرتغيون بلدة كبيرة دعوها باسم الجزيرة . ومن مُلحقات هذه الولاية جزيرة هَينان الغنيَّة بمعادنها الذهبيَّة واخشابها الكريمة

امَّا الولايات الداخليَّة البعيدة عن البحر فهي مع سعتها وكثرة اهلها وجودة صنائعها دون الولايات السابق ذكرها نكتفي بذكر بعضها كولاية شان سي التي فيها مدينة من اعظم مدن الصين تدعى سيغان فو وهذه الولاية سبقت بقيَّة ولايات الصين بتمدُّنها وعظمتها . وكولاية كيانغ سي حاضرتها كِنغ تي تشنهغ الشهيرة بخزفيَّاتها الصينيَّة (عدد اهلها مليون) . وولاية هونان الملقَّبة فردوس المملكة الصينيَّة . وغير ذلك من الولايات الكبيرة

والصين مع ولاياتها العديدة واتساع حدودها تُقسم من حيث ارفاقها الطبيعيَّة واختلاف هوائها الى ثلاث مناطق احداها المنطقة الشمالية يغلب عليها الجبال العالية ويشتدُّ فيها البرد لكنها كثيرة المعادن كالذهب والفضة والنوشادر والرصاص والحجارة الكريمة وفيها ايضاً ظبي المسك . والمنطقة الثانية هي المنطقة المعتدلة اتحاوزها غزيرة الخيرات كثيرة الغلَّات تُزرع فيها انواع البذور لاسيما الارزّ وهو معظم قوت الصينيين . ومثلها المنطقة الجنوبية وفيها يكثر زرع الشاي الذي يجدي بلاد الصين ارباحاً فاحشة

٢ اهل الصين وعوائدهم

الصينيون كالاوربيين من ابناء يافث على الاصحّ وهم يدخلون في الشعب المغولي لانَّ صفاتهِ في المغول اظهر منها في غيرهِ . وقد دُعي ايضاً هذا الشعب بالسلالة

الصفراء لصفرة ابنائها ومن سماتهم المفرزة لهم عن السلالتين الأخريين وهما البيضاء والسوداء ان وجوههم عريضة مسطّحة ووجناتهم شاخصة وعيونهم مستطيلة ضيّقة ترتفع الى جهة اصداغهم وفي انوفهم فطَسٌ في اعلى قصبتها ولهم شفاه ناتئة في غالظ وشعرٌ سَبطٌ اسود جافٍ ورؤوس مخروطة الشكل. ولونهم اصفر يضرب الى السُمرة. امّا اخلاقهم فيغلب عليها اللين والدماثة والرِّقة والصيني لا يحبّ القتال ومعسمة الحروب وفي طبعه جبنٌ وفشل. وهو مع ذلك كثير الحيل والخداع شديد الطمع في المال معاقرٌ للسكرات مغرمٌ باعمالهِ وتاريخ اسلافهِ يرى نفسهُ فوق من سواهُ ولا يعتبر الّا ما صنعهُ يدهِ

والعائلة الصينيّة ذات ألفة وارتباط يكرم الصغار والديهم ويحنّ الوالدون الى اولادهم: ومع هذا ترى كثيرين منهم لقلّة ذات يدهم يعرضون اطفالهم على المزابل تأكلها الكلاب والحنازير او يبيعونهم بابخس الاثمان والمرسلون الكاثوليكيون ينجّون منهم في كلّ سنة نحو خمسين الفاً يعطفون عليهم ويربّونهم تربيةً صالحة

والمرأة في الصين مهذّبة مكرّمة شريفة الطباع تخرج من دارها غير محجوبة ليس على رأسها رداء يسترهُ وانّما تجعل شعرها جمةً تضفرها في قمّة رأسها وتزينهُ بالزهور الصناعيّة. ويستحبّ الصينيون في نسائهم السمن وضخامة الجسم وصغر الاقدام يضغطونها ضغطاً متوالياً في قوالب خرجة تكفُّها عن النموّ

ومن آفات العائلة الصينية كثرة الازواج ترخص بها السُنن الملّيّة الّا انّها بين الاعيان والوجوه اشيع منها بين جمهور الشعب

واهل الصين اربع طبقات الاشراف وهم ارباب القلم والسيف ثمّ اصحاب الاملاك وهم ارباب الفلاحة ثمّ اهل الصناعة ثمّ التجار ولكل هذه الطبقات عادات مشهورة واطوار شائعة وسُنن ورثوها عن اجدادهم لا ينتهكون حرمتها البتة

ومن عوائدهم انّ الرجال يحلقون رؤوسهم الّا ذؤابةً في وسطها كثيفة طويلة يرسلونها وراء ظهرهم. والاشراف منهم لا يقلّمون اظفارهم

والصينيون يلبسون الثياب الواسعة من القمصان والسراويل تُصنع من نسيج القطن او الحرير يتأنق فيها كبارهم. وعلى رؤوسهم قبعات تسترها والبسة اهل الصين تكون

زرقاً او بنفسجيّة او سوداً للرجال وخضراً او ورديّة للنساء. اما اللون الاصفر فهو مختصّ بالامبراطور واسرته

وقد وجدنا في كتاب « سلسلة التواريخ » لبعض سيّاح العرب في القرن العاشر للمسيح يدعى سليمان التاجر وصفاً لاهل الصين وعوائدهم احببنا ان نقتطف منهُ طرفةً لندرة هذا الكتاب في بلادنا ولطابقة وصفهِ لكثيرٍ من احوال الصينيين في ايامنا بعد مضيّ نحو الف سنة على كتابتهِ قال (ص٢٤ ed. Reinaud, II,):

« وطعام الصينيين الارزّ وربّما طبخوا معهُ الكوشان (صنف من الادم) فصبّرهُ على الارزّ فاكلوهُ فاما الملوك منهم فيأكلون خبز الحنطة واللحم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها وشرابهم النبيذ المعمول من الارزّ وليس في بلادهم خمر ولا يعرفونها ولا يشربونها ويُعمل من الارزّ الخلّ والنبيذ والناطف وما اشبه ذلك. ويأكلون الميتة وما اشبهها. ونساؤهم يكشفنَ رؤوسهنَّ ويجعلن فيها الامشاط فربّما كان في رأس المرأة عشرون مشطاً من العاج وغير ذلك والرجال يغطّون رؤوسهم بشيء يشبه القلانس... (ص ٣١) واهل الصين يتّخذون من قرون الكركدنّ المناطق تبلغ المنطقة الفي دينار واكثر...

« (ص٣٣) ويُقال ان لملك الصين من امّهات المدائن اكثر من مائتي مدينة ولكل مدينة ملك وخصيّ وتحت كل مدينة مدائن. وانّما تُسمّى مدينةً اذا كان لها الجادم والجادم مثل البوق يُنفخ فيهِ وهو طويل. طولهُ ثلاثة او اربعة اذرع ورأسهُ دقيق بقدر ما يلتقمهُ الرجل ويذهب صوتهُ نحواً من ميل ولكل مدينة اربعة ابواب على كلّ باب منها من الجادم خمسة تُنفخ في اوقات معلومة من الليل والنهار وعلى كل مدينة عشرة طبول تُضرب معهُ وانّما يُفعل ذلك لتُعلم طاعتهم للملك وبهِ يعرفون اوقات الليل والنهار ولهم علامات ووزن للساعات. ومعاملاتهم بالفلوس وخزانتهم كخزائن الملوك وليس لاحدٍ من الملوك فلوس سواهم وهي عين البلاد. ولهم الذهب والفضّة واللؤلؤ والديباج والحرير وكل ذلك كثير عندهم غير انَّ ذلك متاعٌ والفلوس عينٌ. والفكّوج عندهم الف فلس. ولهم القَضار (وهو طين الخزف) الجيّد يُعمل منهُ اقداح في رقّة القوارير يُرى ضوء الماء فيها وهو من فخّار

« (ص ٣٦) واذا مات الرجل من اهل الصين لم يُدفن الّا في اليوم الذي مات

خارطة مواقع الحرب الصينية

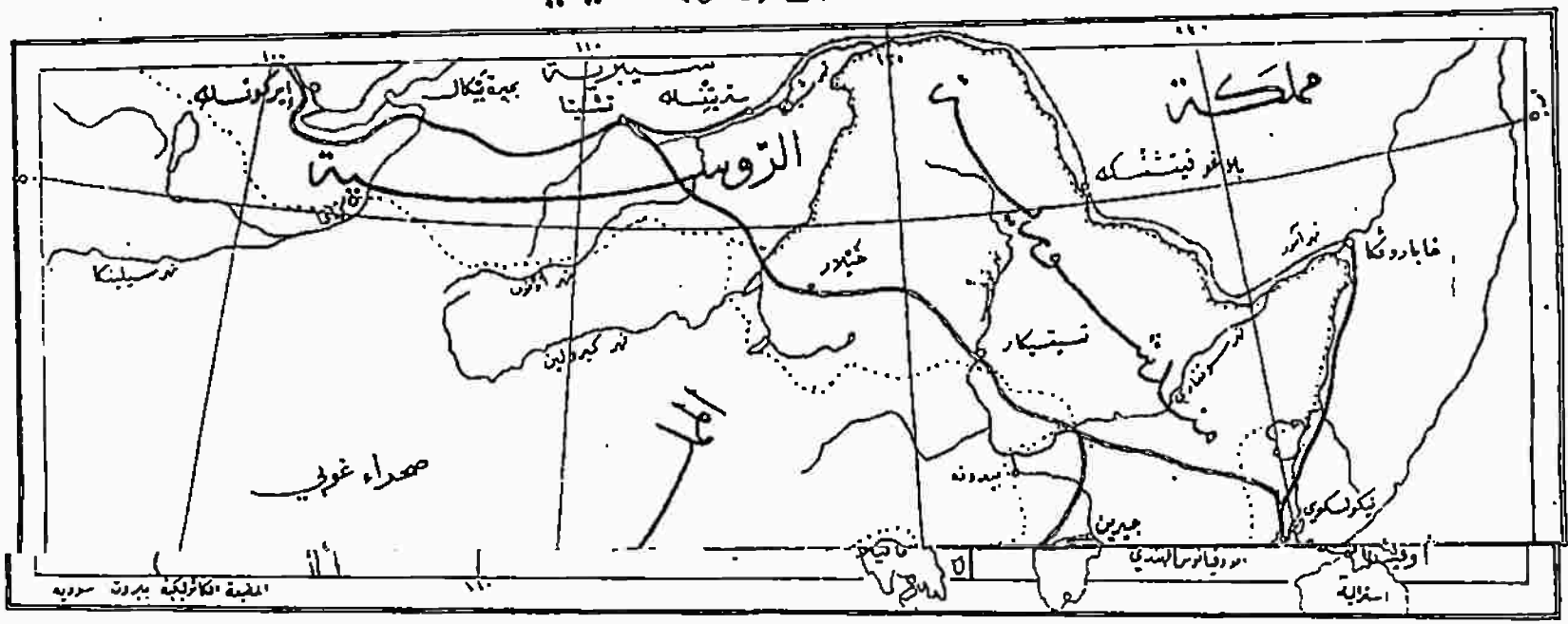

في مثله من قابل ويجعلونهُ في تابوت ويخلُونهُ في منازلهم ويجعلون عليهِ النورة فتمص ماءهُ ويبقى. والملوك يُجعلون في السبر والكافور. ويكون على موتاهم ثلاث سنين ومن لم يبكِ ضُرب بالخشب كذلك النساء والرجال.. ويدفنون في ضريح كضريح العرب. ولا يقطعون عن ميتهم الطعام ويزعمون انهُ يأكل ويشرب... ولا يزالون في البكاء والإطعام ما بقي الميت في منزلهم فيفتقرون على موتاهم فلا يبقى لهم نفقة ولا صيغة الّا انفقوها عليهم وقد كانوا قبل هذا يدفنون الملك وما ملك من آلة بيتهِ من ثياب ومناطق.. وقد تركوا ذلك الآن وذلك انهُ نُبش بعض موتاهم وأُخذ ما كان معهُ

« والفقير والغني من اهل الصين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة. (ص٤٧) وفي كلّ مدينة كتّاب ومعلّم يعلّم الفقراء واولادهم من بيت المال يأكلون

« واسم ملوكهم على قدر الجاه وكبر المدائن.. امّا الملك الاكبر فلا يُرى الّا في كلّ عشرة اشهر يقول: « اذا رآني الناس يستخفُّون بي والرئاسات لا تقوم الّا بالتجبُّر ». واذا غلا السعر اخرج السلطان من خزائنهِ الطعام فباعهُ بارخص من سعر السوق فلا يبقى عندهم غلا.. والذي يدخل بيت المال انّما هو الجزية التي على رؤوسهم واظنُّ ان الذي يدخل بيت مال « خانفو » في كلّ يوم خمسون الف دينار على انّها ليست باعظم مدائنهم. ويختصّ الملك من المعادن بالملح وحشيش يشربونهُ بالماء الحارّ ويباع منهُ في كلّ مدينة بمالٍ عظيم ويقال لهُ الساخ (يريد الشاي) وهو اكثر ورقاً من الرطبة واطيب قليلاً وفيهِ مرارة فيُغلى الماء ويُذرّ عليهِ فهو ينفعهم من كلّ شيء.

« وفي كل مدينة شيء يُدعى الدرا وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة مربوط بخيط مارّ على ظهر الطريق للعامّة كافةً وبين الملك وبينهُ نحو من فرسخ فاذا حُرّك الخيط المدرد ادنى حركة تحرّك الجرس فمن كان لهُ ظلامة حرّك هذا الخيط فيتحرّك الجرس منهُ على رأس الملك فيرذن لهُ بالدخول حتى يُنهي حالهُ بنفسهِ ويشرح ظلامتهُ وجميع البلاد فيها ذلك

« (ص٥٢) واهل الصين اهل ملاهي.. واذا ارادوا التزويج تهانأوا بينهم ثمّ تهادَوا ثمّ يشهرون التزويج بالعشوج والطبول وهديّتهم من المال على قدر الامكان.. ويتزوّج الرجل من الصين ما شاء من النساء... (ص ٥٤) وهم يعبدون الاصنام ويصلُّون لها ويتضرّعون اليها ولهم كتب دين.. (ص ٥٧) وليس لاهل الصين علم وانّما ديانتهم

من الهند وهم يزعمون ان الهند وضعوا لهم البـددة (Bouddhisme) وانهم هم اهل الدين وفي كلا البلدين يرجعون الى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم. والطب والفلسفة بالهند ولاهل الصين ايضاً طبّ واكثر طبهم الكيّ ولهم علم بالنجوم وذاك بالهنـد اكثر...

« (ص٣٥) ودوابهم كثيرة وليس لهم خيل عربية بل غيرها ولهم حمير وابل كثيرة ولها سنامان.. (ص ٥٧) وليس للصين فيلة ولا يتركونها في بلادهم تشاؤماً بها

« (ص٥٨) وبلاد الصين اتوه من بلاد الهند واحسن واهلها في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة وبلادها اصحّ واقلّ امراضاً واطيب هواء لا يكاد يُرى بهـا اعمى ولا اعور ولا من به عاهة وهذا كثير في بلاد الهند. وانهار البلدين جميعاً عظام فيهما ما هو اعظم من انهارنا والامطار بالبلدين جميعاً كثيرة.. واهل الصين اجمل من اهل الهنـد واشبه بالعرب في اللبـاس والدوابّ وهم في هيئتهم وفي مواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الاقبية والمناطق.. (ص٥٤) واكثر اهل الصين لا لحى لهم خلقةً

« (ص ٧٥) واهل الصين من احذق خلق الله كفّاً بنقش وصناعة وكلّ عمل لا يقدمهم فيه احد من سائر الامم. والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر انّ غيره يعجز عنهُ فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتـدع فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك الى سنة فان لم يُخرج احد فيه عيباً جازاهُ وأدخلهُ في جملة صنّاعه وان خرج فيه عيب اطّرحهُ ولم يُجازه » (ستأتي البقيّة)

جغرافية سوريا وفلسطين

للاب هنري لامنس اليسوعي

انتقدنا في المشرق (٣ : ٤٧٤) والانتقاد من سُنن الادباء كتاباً وسمهُ بهذا العنوان مؤلفهُ الاديب جناب فضل الله ابو حلقة مدير جريدة الحبة. فاثنينا على ما وجدنا في هـذا التأليف من الصفات الحسنة وأخذنا ثناءنا ببعض الملاحظات كان بودنا ان ينتفع بها صاحب الكتاب في تحسين عملهِ وكنّا ضربنا صفحاً مع ذلك عن اغلاط عديدة. فظنّ جناب الكاتب انّ قولنا هذا بعض اختلاق وانّنا قاصرون عن وجود خلَل في كتابهِ (ولا غرو فان الانسان معجبٌ بعملهِ) فكرّر علينا غير مرة بعنفٍ في مجلة الحبـة (نعم الاسم ونعم المسمّى) ان نبيّن لهُ هذه الاغلاط ان